ويسألهم محمدُ ﷺ عن علم يؤكدون به صحة مايدعونه . . ويزعمونه أى هل عندكم بلاغ من الله ، والحق أنهم لاعلم لديهم ولادليل ، إنهم يتبعون الظن ، ويخرصون ، أى أن كلامهم غير واضح الدلالة على المراد منه ، إنه تخمين وظن وكذب .

لذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

نعم فلو شاء سبحانه لقسرهم على الهداية وما استطاع واحد منهم أن يخرج عن الهداية ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل أراد أن يكون الإقبال على الإيمان به ، واتباع التكاليف أمراً داخلاً فى اختيارهم . ألم يخلق سبحانه خلقاً لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون؟ ألم يخلق الكون كله مؤتمراً بأمره؟!

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَـٰلِغَةُ .. ﴿١٤٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

و«الحجة» هى الدليل الذى تقيمه لتأييد قولك فى الجدل ، ولذلك نسمى عقودنا حجة على الملكية . أو «الحجة البالغة» أى التى لاينفذ منها شىء أبداً يعطل المراد منها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

ومادمتم لا تملكون العلم فمن المحتمل أنكم تملكون شهوداً على ما تقولون . والخطاب : « هلم شهداءكم » هو خطاب للجماعة ، و« هلم » يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى مذكراً كان أو مؤنثاً . والجمع مذكراً أو مؤنثاً ، فتقول : هلم يا زيد إلىّ ، وهلم يا هند إلىّ ، وهلم أيضاً لجماعة الذكور ولجماعة الإناث ،وهذه لغة الحجازيين . وتختلف عن لغة بنى تميم التى يزيدون عليها فيقال : « هلم يا رجل » ، و« هلمى يا امرأة » ، و« هلما ، وهلموا ، وهلممن » . والقرآن نزل بلغة قريش « الحجازيين » ، والحق يقول : « هلم شهداءكم » . أى هاتوا وأحضروا شهداءكم أن الله حرّم هذا ، إنكم بلا علم ، وكذلك لا شهود عندكم على المدعى ؛ فإن كان عندكم شهود هاتوا هؤلاء الشهود .

وماذا إن أحضروا شهود زور ؟ إنه ـ سبحانه ـ يحذر رسوله ويوضح له أنهم حتى ولو أحضروا شهداء إياك أن تصدقهم فهم كذابون :

وكان الله يريد أن يفضح الشهود أيضاً أمام المشهود أمامهم ، ويعطى أيضاً قضيتين اثنتين ؛ فسبحانه يدحض ويبطل حجتهم ، ويفضح الشهود الذين جاءوا بهم . فكأنه قال : هاتوا هؤلاء الذين قالوا لكم هذا الكلام ، وفى ذلك فضيحة لمن لقنهم هذه الأوامر .

ويأمر الحق رسوله ألا يتبع الذين كذبوا بآياته سبحانه . وكلمة « أهواء » ، جمع هوى ، وهو ما يختمر فى الذهن ليلوى الإنسان عن الحق ؛ فهو شهوة ترد على الذهن فتجعله يعدل عن الحق :

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

وهم لا يكذبون بآيات الله فقط بل لا يؤمنون بالآخرة أيضاً ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم ، ولو أنهم قدروا هذه المسألة لامتنعوا عن اتباع أهوائهم .

ويذيل الحق الآية بقوله الكريم :

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

ونفهم من كلمة « يعدل » أنها من العدل بمعنى القِسط ؛ إذا قيل : عدل فى كذا ، أو عدل بين فلان وفلان ؛ أو عدل فى الحكم ، أما عدل بكذا فيكون المراد منها أنه جعله عديلا ومساويًا . وجاءت بهذا المعنى فى آية أخرى هى قوله الحق :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾

(سورة الأنعام)

أى يجعلون ما لا يصح أن يكون مساويًا لله ، مساويا وعدلا لله . وهذا فعل من جعلوا لله شركاء ، وكذلك من لا يؤمنون بالله ؛ فالواحد منهم يعدل عن ربه عدولاً ويميل ويعرض عنه ويشرك به ويسوِّى به غيره . ويجب أن نلحظ عند النطق بكلمة « التوحيد » وهى : « لا إله إلا الله » ألا نقف عند قول : (لا إله) لأن ذلك يعنى إنكار ونفى وجود إله وهذا والعياذ بالله كفر . إذن يجب علينا أن نصلها بما بعدها فنقول : (لا إله إلا الله) أو نكون عند نطقنا بلفظ (لا إله) قد انعقدت قلوبنا على وحدانيته وما يجب له - تعالت عظمته - من صفات الجلال والكمال ، ومعنى (لا إله إلاالله) أنه لا معبود بحق إلا الله ، لأن المعبودين بباطل كثيرون كالأصنام والنجوم والجن وبعض الإنس والملائكة وغير ذلك .

وكلمة « بربهم يعدلون » تفيد أنهم أهل شرك ، وكذلك من ينكر وجود الله إنه عن ربنا يعدل ويميل ويحيد عن الاعتراف به إلها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ
أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ
وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

ننظر فى هذه الآية فلا نجد شيئاً من المحرمات من الأطعمة التى بها قوام الحياة ، ولكن نجد فيها المحرمات التى إن اتبعناها نهدر القيم المعنوية التى هى مقومات الحياة الروحية ، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ﴾ .

والأداء القرآنى هنا يأخذ لفظ « تعال » بفهم أعمق من مجرد الإقبال ، فكأن الحق يقول : أقبل علىّ إقبال من يريد التعالى فى تلقى الأوامر . فأنت تقبل على أوامر الله لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية ؛ فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر ؛ لأن الشرط الواجب فى المشرع ألاّ يكون مساويًا لمن شرّع له ، وألاّ يكون منتفعاً ببعض ما شرّع ، وأن يكون مستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شىء والمشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه . ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع .

الرأسمالى ـ مثلاً ـ يشرع ليستفيد ، والماركسى يشرّع ليستفيد . وكل واحد

يشرع وفي نفسه هوى ، ومن بعد ذلك تعدّل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحت لا تفي ولا تغطي أمور الحياة ، فكأن المشرع الأول لقصور علمه غابت عنه حقائق فضحها المجتمع حين برزت القضايا ، فنظر في قانونه فلم يجد شيئاً يغطي هذه القضايا ، فيقول : نعدل القانون ، ونستدرك . ومعنى استدراك القانون أي أن هناك ما جهله ساعة قنن .

إذن يشترط في المقنن ألاّ يكون مساويًا للمُقَنن له ، وألاّ تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يُسْتَدْرَك عليه ، وألاّ يكون منتفعاً بالتشريع ، ولا يوجد ذلك في بشر أبداً ، فأوضح الحق : اتركوا حضيض التشريع البشري وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها ؛ فحين ينادي الله « تعالَوْا » فمعناها ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقنيناتكم التي تحكم حركة حياتكم ، فهو لا ينتفع بما شرع ، بل أنتم الذين تنتفعون ، ولأنه لا يغيب عنه شيء سبحانه ، وهو خالق ، هو أولى أن يشرع لكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

« أتل » من التلاوة وهي القراءة ﴿ ما حرَّم ربكم عليكم ﴾ أي ما جعله حراما . . أي يمتنع عليهم فعله ، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغاً بعد بلاغ .

﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوي يؤكد علينا ألا نشرك به ؛ فأنت ساعة تأتي لتلقي أوامر لمن ترأسه تقول له : استمع إلى ما أمنعك منه فاتبعه . ثم تبدأ في التفصيل ، والحق هنا جاء بأول بند من المحرمات والمحظورات هو ألا نشرك به شيئاً . أي أتلو عليكم تحريم الشرك ، فأول المحرمات الشرك ، وعلينا أن نوحد الله ، فكل نهي عن شيء أمر بمقابله وكل أمر بشيء نهي عن مقابله . وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهيًا ، وكل نهي يستلزم أمراً . فلا تلتبس عليكم الأوامر والنواهي . أو تكون (عليكم) منقطعة عما قبلها ، أي عليكم ترك الشرك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألاّ تقتلوا أولادكم ، وألاّ تقربوا

الفواحش . . أى ألزموا ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو أمر بإيجاب ويستلزم نهيا عن مقابله وهو عقوق الوالدين ، أى لا تعقوهم . فعدم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرم الله . ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [سورة الأنعام]

أى استبقوا حياة أولادكم ، فإن أردتها من قبيل النهى فقل هو نهى عن قتل الأولاد ، وإن أردتها من قبيل الإيجاب فقل : استبقوا الحياة . وقول : ﴿ مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ أى من فقر ، فكأنهم كانوا فقراء ، ومادام الإملاق موجوداً فشغل الإنسان برزق نفسه يسبق الانشغال برزق من يأتى بعده ؛ فيا أهل الإملاق تذكروا أن الله يرزقكم ويرزق من سيأتى زيادة وهم الأولاد . ويقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. (١٥١) ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا نهى عن القرب ، أى نهى عن الملابسات التى قد تؤدى إلى الفعل لا نهى عن الفعل فقط ؛ فحينما أراد الله يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (١٩) ﴾ [سورة الأعراف]

لأن القرب قد يغرى بالأكل ، وكذلك : ﴿ ولاتقربوا الفواحش ﴾ أى لا تأتى إلى مقدمات الفواحش بأن تلقى نظرة أو تحدق النظر إلى محرمات غيرك ، وكذلك المرأة التى تتبرج ؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل ؛ لأن رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه

وعرضه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعة ، ألا لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت كله ألا وهى القلب »[1] .

ويمنعك الحق : ألاّ تقرب، أى أبعد نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء ، مثلها مثل «اجتنب» تماماً ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ .. (٣٠) ﴾ [سورة الحج]

ويقول : ﴿ .. وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [سورة الحج]

وهنا يقول تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ .

وكل ما ظهر من الفواحش هو من أفعال الجوارح التى ترتكب الموبقات و«وما بطن» هو من أفعال السرائر مثل الحقد ، والغل ، والحسد .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (١٥١) ﴾

[سورة الأنعام]

وكلمة «النفس» يختلف الناس فى معناها ، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة ، والروح فى ذاتها خيّرة ، والمادة فى ذاتها خيرة مسبحة عابدة .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [سورة الإسراء]

وإذا التقت الروح بالمادة تقوم الحياة ، فمعنى قتل النفس أن نفصل الروح عن المادة بهدم البنية وهذا غير الموت ؛ لأن الله هو الذى يميت النفس ، أما الإنسان به فى الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن فى القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها . والذى وهب الحياة هو الله ، فلا يسلب الحياة إلا هو . وبعد ذلك يشرع الله لنا أن نسلب الحياة قصاصاً ، أو للزنا من الثيب المحصن رجلا أو امرأة ، أو للردّة ، فهذا قتل بحق ،لكن سبحانه وتعالى يلعن من يهدم بنيان الله بغير الحق ، والإنسان بنيان الله فلا تعتدى عليه . ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنساناً ؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة نفسه ، وحين يحفظ الإنسان كل نفس ، فإنّه ينجو بنفسه ويسلم .

هكذا يأمر الحق بأن نقتل الثيّب ، والثيب الزانى يطلق على الذكر والأنثى وهو من تزوج ودخل على زوجه وذاق كل منهما عسيلة الآخر وأفضى إليه ، وكذلك المرتد ، فنحن نحرص على حرية الاعتقاد ؛ بدليل أننا لا نقتل الكافر الأصلى لكفره ، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضى أن يدرسه دراسة مستوفية مقنعة ، وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فلن يدخله إلا وهو مقتنع تمام الاقتناع . ونحن نحمى بالاختيار ، فنعلن لكل من يقبل على الإسلام ونحذره : إياك أن تدخل بظاهر القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتددت فسوف تقتل ، ومادام الشىء ثمنه الحياة ، فالواجب أن يحتاط الإنسان الاحتياط الشديد . وفى ذلك أيضاً ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث فى الأدلة فسيقتنع بأن له إلهاً حقاً ، ولكننا لا نقتل الكافر الأصلى .

إذن فقتل المرتد حماية لحزم الاختيار ، فإياك أن تدخل بدون روية ؛ لأنك لو دخلت ثم ارتددت فسوف تقتل ، وبذلك يصفى الحق المسألة تصفية لازمة بأن يعرض من يقبل على الإسلام جميع الحجج على نفسه ، ولا يدخل إلا بنية على هذا ، ففى أى عقد يحاول الإنسان أن يعرف التزاماته وأن تتضح أمامه هذه الالتزامات . ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهوج ، أو الدخول الأرعن ، أو الدخول المتعجل . بل يلزمه أن يدخل بتؤدة وروية .

وفى الزواج يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضا هى : « أنت طالق » ، ولذلك تحتاط المرأة ، فمادامت قد عرفت أن بقاء زواجها رهن بكلمة فعليها أن تحرص ألا تضع هذا الحق إلا فى يد أمينة عليه . وساعة أن يقول لها أبوها :

اسمعى ، إن لك أن تختارى الزوج الذى إن أحبك أكرمك ، وإن كرهك لا يظلمك ؛ لأنه بكلمة منه تنتهى الحياة الزوجية . إذن فعلى المرأة أن تفكر فى الإنسان الأمين على هذه الكلمة .

ومع ذلك فهناك احتياط للغفلة ؛ فالرجل يتزوج بكلمة واحدة ، من مرة واحدة لكن فى الطلاق هناك ثلاث مراحل ؛ كرصيد للغفلة . فالرجل يتزوج المرأة بكلمة « زوّجتك نفسى أو يزوجها وليها ويكون القبول من الزوج وبهذا يتم الزواج » . لكن فى الطلاق أباح الله لغفلة الرجل ولرعونته أن يطلق مرة ، ثم يراجع هومن غير دخول أحد بينهما ، ثم يطلق ثانية ، ويراجعها ، ولكن بعد الطلاق الثالث يجد التنبيه من الحق : لقد احتطنا لك برصيد من غفلتك . ولكن عندما تريدها زوجاً لك فلا يتم ذلك إلّاأن تتزوج غيرك ، وبعدها قد تعود لك أو تبقى مع من تزوجها . فاحتط جيداً للأمر الذى تدخل عليه ، وللتعاقد الذى التزمت به . فإذا كان هذا هو الشأن فى تعاقد الزواج ، فما بالنا بالرّدة ؟ إنّنا نقتل المرتد ، ولا نفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه وقبل الدخول فى حيز المؤمنين ، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيقتل . وهكذا يصعّب الإسلام الدخول إليه ، ويحمى الاختيار فى الوقت نفسه .

ويتابع سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

و « الوصية » لا تكون إلا للأمور المهمة التى لا تستقيم كالحياة إلا بالقيام بها ، إنها فى أمهات المسائل التى لا يصح أن نغفلها . ولذلك حين تنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لقد ظل ثلاثة وعشرين عاماً يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض ، ثم جاء فى حجة الوداع وركّز كل مبادئ الدين فى قوله تعالى :
﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

و « وصاكم » غير شرّع ؛ فشرّع تأتى بكل التشريعات وما فيها من تفاصيل صغيرة ، والوصية تضم أمهات المسائل فى التشريع . و العقل يجب أن يسع المسألة من أولها إلى آخرها ؛ فلو استعملت عقلك فى كل منهى عنه ، أو فى كل مأمور

به فى الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن فى القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء التى ذكرها فى هذه الآية بـ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ . وهذه الأوامر متفق عليها فى جميع الرسالات وفى جميع الأديان ، ويسمونها : «الوصايا العشر» .

والأشياء الخمسة التى أوصى بها سبحانه هى :

* ألا تشركوا به شيئاً .
* وبالوالدين إحساناً .
* ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .
* ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن .
* ولاتقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق .

فكان يجب أن يقول : ذلكم وصاكم بها ، لكنه قال : ﴿وصاكم به﴾ ، فكأن أوامر الله ونواهيه أمر واحد متلازم تتمثل كلها فى : التزم ماأمر الله به ، واجتنب مانهى الله عنه .

وقوله سبحانه : ﴿لعلكم تعقلون﴾ فكأن العقل لو خُلّى ليبحث هذه الأشياء بحثاً مستقلاً عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء .

إذن ، كيف نُعْصم من أهوائنا المتضاربة بعضها مع بعض؟ . لابد أن يكون الإله واحداً حتى لايتبع كل واحد منا هواه . إننا نعرف أن الأصل فى الإنسان هو الأب والأم . لذلك وصى بالأصل فى ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ ، ووصى أننا لانقتل الأولاد خشية الفقر ؛ لأن الحياة تستمر بهم ، وبعد ذلك لابد أن تكون الحياة نظيفة ، طاهرة لجميع الأفراد ، ولاتشوبها شائبة الدنس أبداً ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تركنا الفواحش : ماظهر منها ومابطن ؛ لأننا نلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يُهْمَلون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد طهارة الأنسال فى الحياة ؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية نسله . ويكون محسوباً عليه أمام المجتمع ، ويحذرنا سبحانه من أن نقتل النفس إلا بالحق ؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة .

ثم يجيء الحق بعد ذلك في الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾

ونعلم أن اليتيم هو من فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، هذا في الإنسان ، أما اليتيم في الحيوان فهو من فقد أمه . وقوله الحق :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .. (١٥٢) ﴾ [سورة الأنعام]

هنا يفرض سبحانه أن اليتيم له مال ، فلم يقل : لا تأكل مال اليتيم . بل أمرك ألا تقترب منه ولو بالخاطر ، ولو بالتفكير ، وعليك أن تبتعد عن هذه المسألة . وإذا كان قد قال : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه ؟ . لا ؛ لأنه أضاف وقال بعد ذلك : ﴿ إلا بالتي هي أحسن﴾ أي بأن تُثَمِّرَ له ماله تثمراً يسع عيشه ، ويبقى له الأصل وزيادة ، ولذلك قال في موضع آخر :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. (٥) ﴾ [سورة النساء]

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره ، ثم يعطيه منه كل شهر جزءاً حتى إذا بلغ الرشد يجد المال قد نقص أو ضاع ، لذلك لم يقل : ارزقوهم منها ، بل قال : ﴿وارزقوهم فيها﴾ أي ارزقوهم رزقاً ناشئاً منها . فَمَالُهم ظرفية للرزق ، ولا يتأتى هذا إلا بأن تثموها لليتيم ، ولا نحرم الوصاية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب

الكفاءات فى إدارة الأعمال والأمناء ، وقد يوجد الكفء فى إدارة العمل ، والأمين فيه لكن حاله لا ينهض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامة بإدارة أموال اليتيم ؛ فقال - سبحانه - فى ذلك :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ .. ۝ ﴾ [سورة النساء]

أى أن يهب الوصىّ تلك الرعاية الله ، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجراً ؛ يضمن أنه إن وُجدَ فى ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعوله حسبة لله وتطوعاً منه مدخرا أجره عند الله . والحق هو القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ ﴾ [سورة النساء]

وحينما يجد اليتيم من يرعاه ، وحين يتعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويتولى أمور اليتامى أناس أمناء قادرون على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره ؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغارا ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى ، لكن الإنسان إن وجد اليتيم مكرما ، ووجده آباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم فى رعاية المجتمع ، ولكن لا تنتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أى يتيم ، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيمانى كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعا بقدر الله فى خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولادا . والمثل واضح فى سورة الكهف بين العبد الصالح وسيدنا موسى حينما مرّا على قرية :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا .. ۝ ﴾ [سورة الكهف]

فلم طلبا نقوداً ليدخراها ، ولكنهما طلبا طعاماً لسد الجوع ، وهذه حاجة مُلحّة . ومع أنهما استطعما أهل القرية أبى أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك

أنها قرية لئيمة الأهل . وعلى الرغم من العبد الصالح وجد ردّهم علية وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جدارًا ، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض ، وكأن الجدار له إدارة ، فأقام الجدار ، ولامه سيدنا موسى عليه السلام ، وكان سيدنا موسى منطقيا مع نفسه ، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام فرفضوا ، فكيف ترد عليهم بأن تبنى لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجرة ، فهم قوم لئام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ؛ لأنه ببنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذى تحته وهو ليتمين ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يربيهم . وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار لغلامين يتمين فى المدينة .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا .. (٨٢) ﴾ [سورة الكهف]

فكأن استخراج الكنز مقارن ببلوغ الرشد ، وكأن العبد الصالح قد بنى الجدار بناء مؤقوتا ، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يتماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما . وبعد ذلك جاء لنا بالحيثية لكل ذلك ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا .. (٨٢) ﴾ [سورة الكهف]

فكأن صلاح الأب هو الذى أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كنز الأبناء ، فيأتى العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللئام ، ويطلبان طعاماً ، فلا يطعمونهما ، فيبى العبد الصالح الجدار الموقوت الذى يصون الكنز من اللئام . والحق يقول هنا :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٥٢) ﴾ [سورة الأنعام]

من لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتى هى أحسن فليبتعد عنه .

وحتى لا يتحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وكلمة « فليأكل بالمعروف » أى لا يكتنز ولا يدخر منه أبداً ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسى ماينستر جسمه . ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضاً لا يقدر على التصرف ؛ لذلك قال الحق فى أدائه البيانى حيث يؤدى اللفظ ما يوحى بالمعانى الواسعة :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وجعل الحق مال السفيه فى مرتبة مال الولى ؛ لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها . ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق :

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه أداء قرآنى عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله ، فمادام هو فى سفه فانظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أميناً عليه أمانتك على مالك . وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق :
﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فماذا عن اليتيم الذى لا مال له ؟ . هنا تكون الوصية أقوى ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » (وأشار بالسّبابة والوسطى وفرّج بينهما)[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه البخارى ، والترمذى ، وأبو داود .

« الساعى على الأرملة والمساكين كالمجاهد فى سبيل الله وكالذى يصوم النهار ويقوم الليل »[1] .

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة ، ويريد الولى أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه فضلاعلى أنه يسخط الله ويغضبه فهو خسة ولؤم ونذالة .

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

لم يقل الله ـ سبحانه ـ بالتى هى حسنة ولكنه قال : ﴿ بالتى هى أحسن ﴾ لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعنى أن اليتيم صارت له ذاتية مستقلة ، وما المعيار فى الذاتية المستقلة ؟ ؛ أن يصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذا معيار النضج . مثله مثل الثمرة حين تنضج ؛ أى صارت البذرة التى فيها صالحة لأن نضعها فى الأرض لتكون شجرة . وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوى البذرة وتنضج .

و « الأشد » أى أن الإنسان يصير قادراً على إنجاب مثله وهو ما نسميه البلوغ ، ويصبح أيضاً قادراً على حسن التصرف فى المال وفى كل شىء . ويتابع سبحانه :

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والكيل هى المعايير لما يكال حجماً ، والموازين هى المعايير لما يُقدّر كثافة ، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة . معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ، وهناك أيضاً التقديرات العادلة فى القياس ، للأقمشة مثلا ، المقياس فيها هو المتر ، إذن كل شىء بحسبه ، وإذا أردت الموزون فلابد أن يكن بالقسط ، أى بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نفاسة الأشياء ، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو القلقاس ، فنحن نزنه بميزان

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد .

كبير ؛ لأن فرق الميزان قد يكون حول الكيلو جرام، فالأمر حينئذ يكون مقبولاً . وحين نزن أشياء أثمن قليلاً ، نأتي بالميزان الدقيق . فإن كان الشيء الموزون ذهباً نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن لفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن .

إننا نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها . وحين نزن المواد الكيماوية نأتي بميزان يعمل بالذرة . إذن كل موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره ؛ لأن تحقيق العدالة في الميزان مسألة صعبة ، وكذلك الأمر في الكيل . فحين يكيل الإنسان كيلاً يمسك إناء الكيلة ويهزه ؛ حتى يأتي الميكال دقيقاً محرراً، وإن أراد أن يلغي ضميره ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ المكيال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لا تقع . وربنا يقول :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [سورة المطففين]

فحين يكتال يستوفي ويطفف أي يزيد ماسوف يأخذه شراء ، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمناً أكثر من ثمن مايزن أو يكيل . وأصل المبادلات غالباً بين طرفين ، وبعض المتنطعين يقول : كيف يقول الحق : ﴿ويل للمطففين﴾ والتطفيف في أي مسألة يكون بالزيادة ، لا بالنقص . ونقول : انتبه إلى أن المتحدث هو الله ، والتطفيف يزيد طرفاً وينقص من طرف ، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء . فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفي لنفسه فهو مطفف .

ولذلك تأتي دقة الأداء القرآني من ربنا :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ..(١٥٢) ﴾

[سورة الأنعام]

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لواسع رحمته في التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أن تتحكم فيه أشياء لاتدخل في الاستطاعة ؛ ففي ضبط المكيال والميزان قال : ﴿لانكلف نفساً

نفساً إلا وسعها ﴾ لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل فى نطاق الإنسان . ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التى نعلمها إن كانت من الأشياء التى ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة . وإن كانت فى المتوسط فوزنها له آله ، وإن كان فى الأشياء النفيسة الدقيقة التى للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبّة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ إباحة للأشياء الزائدة أو الناقصة التى لا تدخل فى الاستطاعة ، ثم قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ..(١٥٢) ﴾ [سورة الأنعام]

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب ، ينفعل للمطلوب فيها خبراً أو إنشاءً ، والقول مقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجارحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

وهل العدل مقصور على القول؟ أو العدل أيضاً يكون فى الفعل؟ إن العدل قد يكون فى خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت العدل فى قولك ، ألفته وأنست به وأحببته حتى فى أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، وإن تقر على شىء فى نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة . قلها بالحق ، والحكم . قله بالحق . والوصية . قلها بالحق . والفتوى . قلها بالحق . إذن فالحق فى القول أمر دائر فى كثير من التصرفات ؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لواحد بشىء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك فى الحياة يزهد فى الحركة . لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل

الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

والذى يؤثر فى العدل هو الهوى ، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن يميلك إلى ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقاً بك أو بقرابة لك ، وقد تريد إن حكمت ـ والعياذ بالله ـ باطلا ، أن تسعد ذا قرباك ،وأنت بذلك لم تؤد حق القرابة ؛ لأن حق القرابة كان يقتضى أن تمنع عنه كل شىء محرّم وتحمى عرضه ، وتحمى دينه قبل أن تحمى مصلحته فى النفعية الزائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت فى الواقع حكمت عليه لا له .

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقمة العهود هو الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن نتلقى منه التكليف ، فكل تكليف من تكاليف الله لخلقه يُعتبر عهداً داخلاً فى إطار الإيمان ؛ لأن الله لا يحكم حكماً أو يبينه لمكلَّف إلا بعد أن يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

أى يا من آمنت بالعهد الأصيل فى القيم وهو العقيدة ، وآمنت بى إلهاً : خذ التكليف منى ؛ لأنك قد دخلت معى فى عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافراً به ، إنما يقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا تبحث عن ا فى كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذى أمرك أن تفعل كذا ، فعِلّة كل هى الحكم .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

و « ذلكم » إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه :

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم أحكاماً كثيرة جدًّا ، ولكن الوصية التى يوصى الله بها تكون هى عيون التشريع . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنه عن هذه الآيات : « إنها محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب ، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » .

ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا ، ولذلك يقول اليهودى الذى أسلم وهو كعب الأحبار : « والذى نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شىء فى التوراة : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم » . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هى جامعة لكل شيء ؛ نجد تسع وصايا قد مرّت ؛ خمسا منها قال فيها : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وأربعاً قال فيها : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، والعاشرة يقول : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهذه الوصية العاشرة هى الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنّها قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا